خزانة الرءوس

فى دار الخلافة العباسية ببغداد

للأستاذ ميخائيل عواد

تمهيد

إشتهرت دور الخلفاء بكثرة المرافق ، كالغرف والصحون ، والرَّواشن ، والحدائق ، والبرك ، والأحْيار لأصناف الحيوان ، والبساتين لأنواع الطيور ، ومواطن الأنس والتنزُّه ، وغيرها

وكانت الخزائن فى طليعة ما تضمه دار الخليفة . وقد كانت متعددة متباينة . فللكتب خزانة ، وللسلاح خزانة ، ومثل ذلك قُلْ عن الكُسوة والفَرش والسُّروج والأدم والبنود والمال والطعام والشراب والتجمل والجوهر والطيب وغيرها . « وكان الخليفة يمضى إلى موضع من هذه الخزائن ؛ وفى كلّ خزانة دكّة

الإفرنجية المؤنثة المعرفة بأل التعريف وهى كثيرة مثل البرازيل والروسيا والبلجيك والرتينيك والأرجنتين وغيرها مما لم يسمع فى العربية القديمة

طبرق وليبيا

ومن الأعلام التى يصرُّ مذيعنا على التلفظ بها خطأ طبرق فإنه يلفظها بفتح الطاء وكسر الراء وقد نقلها الفرنجة Tobruke واللفظ بالضمتين ، وضبطها أحمد حسنين باشا طبروق بالواو وضبط معها ليبيا بالياء فى كتابه المشهور « فى صحراء ليبيا » وفى ترجمة الإنجيل وردت « ليبيه » بالهاء

هذا بعض من كلّ أعوذ بالمجمع الكريم منه فلعله يدبج لنا رسالة فيه وينشرها لزيادة الفائدة ؛ ولا سيما أن هذا العمل من اختصاصه وهو يقطع به قول كل خطيب ويحفظ للغة شخصيتها وينقيها من شوائب دخيل لا حاجة بنا إليه ؛ وفيه فوق ذلك تشويه لها يبعدها عن شخصيتها النقية القديمة ويدنيها من شخصيات لغات لا تمت إليها بصلة وتفسد عليها شخصيتها

نجيب شاهين

عليها طراحة ، ولها فَرّاش يخدمها وينظفها طول السنة وله جارٍ فى كلّ شهرٍ فيطوفها كلها فى السنة »[1]

وأمْر هذه الخزائن وما تحويه من مختلف الأشياء مشهور معروف فى كتب التاريخ والأدب ، ولكن هنالك خزانة نَدُر ذكرها بين الخزائن ، أمرها عجيب غريب ، لم نسمع بها إلا فى دار الخلافة العباسية ببغداد . تلكم هى « خزانة الرءوس » !

فلا سلاح فيها ، ولا طعام ، ولا شراب ، ولا لباس ، ولا كتب ؛ بل كل ما فيها رءوس بَشر ، بَدَرت منهم أعمال أدّتْ إلى قطف رءوسهم حين أينعت وإيداعها فى هذا المستقرّ

والظاهر أن هاتيك الخزانة كانت واسعة ، وُضِعَت فيها الرءوس فى أسفاط من البردى والخيزران ونضدت فى رفوف

فبعد أن يؤتى بالرءوس ، توضع بين يدى الخليفة فيشاهدها هو ورجال دولته ، ثم تُنْصَب أيّاماً على بعض المواطن البارزة من البلد ؛ فيراها الناس وتكون عبرة لمن اعتبر ، وتحطُّ بعد ذلك ، وتسلم إلى الموكل بأمرها فيعمل على إصلاحها وتنظيفها وتفريغ أمخاخها ، ورفع باق أجزائها المعرّضة للتلف والفساد ، ثم طليها بالأدوية القابضة الماسكة لضمان بقائها كالصبر والكافور والصندل ، وإلصاق رقعة صغيرة على كل رأس كُتب عليها اسم صاحبه ، وتاريخ قطافه ، وما جدر ذكره . وقد أُضيفَ إلى بعضهم العبارة التالية : « هذا جزاء من يخون الإمام ويَسْعَى فى فساد دولته » أو « هذا جزاء من عصى مولاه وكفر نعمته »

وقد انفردت هذه الخزانة على ما بلغنا بوجود يدٍ واحدة ؛ هى اليد التى لأبى علىّ بن مقلة الوزير ، العَلَم المشار إليه فى حسن الخط . وهو الذى قال فيها بعد قطعها : « قد خدمتُ بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء ، وكتبت بها القرآن دفعتين ، تُقْطَع كما تُقْطع أيدى اللصوص ! »[2] . فليت

---

(١) خطط المقريزى (٢ : ٢٥٣ ؛ مطبعة النيل) . وانظر صبح الأعشى (٣ : ٤٧٥ — ٤٧٨) ، وتكملة المعجمات العربية لدوزى (١ : ٣٦٩ — ٣٧٠)

R. Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes (Leyde, 1881)

(٢) تجارب الأمم لمسكويه (٥ : ٣٨٨ ؛ حوادث سنة ٣٢٦ هـ ، طبعة آمدروز)

شعرى ، ألا تكون هذه اليد قد كتبت أيضاً بعض رقاع هذه الرءوس ! وهى الآن حَبِيسَة هذه الخزانة ، شريدة غريبة بين الرءوس ؟

وقد رُتِّبَ لهذه الخزانة غير موكلٍ يقومون بأمرها ومداراتها ، واستقبال الرءوس الجديدة

وما ورد فى التاريخ بصدد الرءوس شىء كثير لم نورد فى مقالنا أهمه وأبرزه

١ — حفظ الرءوس فى خزانة الرءوس

(١) رأس يلبق ، رأس ابن يلبق ، رأس مؤنس ، رأس بعض الخادم ، رأس ابن زيرك :

كانت سنة ٣٢١ للهجرة مشحونة بالأحداث الجسام التى وقعت فى دولة بنى العباس . وكان بعض النفر من القواد الأعاجم والموالى قد استبدوا بالأمر ، فاضطرب حال المملكة وأمست على شَفَا هَوْلٍ شديد ، وشغب هؤلاء غير مرة وحركوا الجند ، وقر رأيهم أخيراً على خلع القاهر بالله واستخلاف أبى أحمد بن المكتفى ، فعقدوا له الأمر سرًّا . فلما سمع القاهر ذلك أخذ حذره ، وبث لهم العيون حتى ساروا بقبضته ، فاعتقلهم وغلهم بأغلال الحديد ، ثم ذبحهم ذبح الشياه ، وأودع رؤوسهم خزانة الرؤوس على الرسم المتّبع . وإليك خبر هذه الرؤوس عن أوثق المصادر :

قال مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ للهجرة) : « ... ودخل القاهر إلى الموضع الذى كان فيه مؤنس ، ويلبق ، وابنه معتقلين ، فذُبح علىّ بن يلبق بحضرته ووجه برأسه إلى أبيه ؛ فلما رآه جزع وبكى بكاء عظيماً . ثم ذبح يلبق ووجه برأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ، فلما رآهما لمن قاتلهما ، فأمر به فجر إلى البالوعة وذُبح كما تذبح الشاة والقاهر يراه . وأُخرجت الرؤوس الثلاثة فى ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس ؛ وطيف برأس علىّ بن يلبق فى جانبى بغداد ، ثم رُدَّ إلى دار السلطان[1] وجُعل مع سائر الرؤوس فى خزانة الرؤوس على الرسم »[2]

(١) المراد بـ « دار السلطان » : دار الخلافة العباسية ببغداد

(٢) تجارب الأمم (٥ : ٢٦٢ — ٢٦٨)

وزاد الذهبى صاحب تاريخ الإسلام على ذلك بقوله « ثم ذبح يمن وابن زيرك ، ثم أطلقت أرزاق الجند فسكنوا واستقامت الأمور للقاهر . وعظم فى القلوب ، وزيد فى ألقابه : (المنتقم من أعداء دين الله) ، ونقش ذلك على السكة ، ... قال أبو بكر الصولى فى كتاب الأوراق : حدثنى الراضى ، قال : لما قتل القاهر مؤنساً ويلبق وابن يلبق أنفذ رؤوسهم إلىّ مع الخدم يتهدّدنى بذلك وأنا فى حبسه لأنى كنت فى حجر مؤنس ؛ فغطنت لِمَا أراد وقلت : (ليس إلا مغالطته) فسجدت شكراً لله وأظهرت للخدم من السرور ما حملهم على أن جعلوا التهدد بشارة ، وجعلت أشكره وأدعو له فرجعوا بذلك »[1]

وروى ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٠هـ) قصة هؤلاء ثم أضاف إلى ذلك قوله : « ... ومضى حتى دخل على مؤنس فوضعهما بين يديه ، فلما رأى الرأسَيْن تشاهد واسترجع ولعن قاتلهما . فقال القاهر جرّوا برجل الكلب اللعون ؛ فجرّوه وذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت ، وأمر وطيف بالرؤوس فى جانبى بغداد ونودى عليها : هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى فى فساد دولته . ثم أُعيدت ونُظّفت وجُعلت فى خزانة الرؤوس كما جرت العادة ... »[2]

وقد نقل إلينا شاهد عيان ، أعنى به ثابت بن سِنان[3] (المتوفى سنة ٣٦٥هـ) خبراً طريفاً عن أحد هذه الرؤوس ، فقال : « حدثنا سلامة الطولونى الحاجب أنه لما أُخرج إليه رأس مؤنس ليصلحه ؛ فرّغ الدماغ منه ووزنه ، فكان ستة أرطال ، وسمعت أنا ذلك من الجفنى وكان حاضره »[4]

(١) تجارب الأمم (٥ : ٢٦٨ ، حاشية « ١ » نقلا عن الذهبى) .

(٢) الكامل فى التاريخ (٨ : ١٩٤ ؛ طبعة تورنبرغ = ٨ : ٨٩ ؛ طبع بولاق)

(٣) ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، صاحب كتاب التاريخ ؛ وهو من سنة نيف وتسعين ومائتين وإلى حين وفاته فى شهور سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وعليه ذيل ابن أخته هلال بن المحسن الصابئ إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة . طالع ترجمته الوافية فى أخبار الحكماء للقفطى (ص ١٠٩ — ١١١ ؛ طبع ليبسك) .

(٤) نقل هذا الخبر مسكويه فى تجارب الأمم (٥ : ٢٦٨) .

(ب) رأس نازوك ، رأس أبي الهيجاء بن محمد بن

قام هذان القائدان بفتنة كبيرة أدّت إلى خلع المقتدر بالله من الخلافة في يوم السبت النصف من المحرم من سنة ٣١٧ هـ ، وتقليد القاهر بالله ، ثم رد المقتدر إليها ثانية في يوم الإثنين السابع عشر من المحرم ، أي بعد ثلاثة أيام ! فكانَ جزاء هذين القائدين القتل ودفع رأسيهما إلى خزانة الرءوس . وقد تبسط في هذا الحادث التاريخي الخطير جملة من المؤرخين ، منهم مسكويه[1] ، فما قاله في هذا الشأن أن الرجّالة « وصلوا إليه [إلى نازوك] وقتلوه ، وقد كانوا قتلوا قبله عجيباً وصاحوا : مقتدر يا منصور . . . » ، ثم قال : « وصلب الرجّالة نازوك وعجيباً على خشب الستارة التي على شاطئ دجلة . . . »

وواصل كلامه حتى جاء على خبر أبي الهيجاء إذ قال « ... فرماه خمارجويه بسهم أصابه تحت ثديه ، وأتبعه بسهم آخر فأصاب ترقوته ، ورماه بسهم ثالث وقد اضطرب فشك فخذيه . قال بُشرى : وهو الحاكي لهذه الصورة عن مشاهدة : فقد رأيت أبا الهيجاء وقد ضرب السهم الذي شك فخذيه فقطعه وجذب السهم الذي أصابه تحت ثديه فانتزعه ورمى به ، ومضى نحو البيت فسقط قبل أن يصل إليه على وجهه ، فأسرع إليه أحد الأسودين فضرب يده اليمنى فقطعها وفيها السيف ، وأخذ السيف ، وغشيه الأسود الآخر فجز رأسه ، فأسرع بعض الخدم فانتزع الرأس من يد الأسود ومضى مبادراً به »

وكان المصير أن « أخرج رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشهرا في الشوارع ، ونودي عليهما : (هذا جزاء من عصى مولاه وكفر نعمته) ، وسكن الهيْج » ، وردا إلى دار الخلافة وجعلا في خزانة الرءوس

(يتبع) جبرائيل عواد

(١) تجارب الأمم (٥ : ١٩٢ — ١٩٩)

كلمات . . .

في يوم ٢٩ اكتوبر الماضي أقامت تركيا الجمهورية احتفالات حكومتها ومهرجانات شعبها بعيد الجمهورية والتحرير قبل ثماني عشرة سنة .

وتركيا القديمة كانت « الرجل المريض » المحتضر الذي تتقاسم الدول كبراها وصغراها مخلّفاته وأسلابه . وتتحيّف حدودها وتهزم جيوشها دول كانت ولايات محكومة لها بحد السيف ؛ تركيا القديمة التي كان شعبها جاهلاً فقيراً مريضاً منحل الخلق متلاشياً ، والتي كانت حكومتها وتاجها وخلافتها شخوصاً لا حول لها ولا قوة ؛ تركيا المهيضة الجناح قد استحالت في ثماني عشرة سنة إلى دولة ، واستحال شعبها أمة لها عزة ولها كرامة ولها جيش تتحدث صحف العالم به ، وأصبحت تركيا الجديدة لها صوت ولها اعتبار وأكثر من اعتبار في معركة السياسة والحرب القائمة ، ونحن نعرف ما هي السياسة والحرب القائمة .

* * *

نحن كانت لنا نهضة قريبة الاتصال الزمني بالنهضة التركية ، أو نستطيع مع التواضع أن نقول : كانت لنا هبّة وانتباهة منذ ثلاث وعشرين سنة وكنا نستطيع أن نصل بهذه الهبّة وبداية اليقظة إلى ما استطاعت تركيا أن تصل إليه .

والآن عند ما نذكر نهضة تركيا ويتحدث الناس أو يكتبون عن تركيا الحديثة في هذه الحرب القائمة : حرب الحديد وحرب العقول والأذهان ، نذكر زعماء تركيا وقادة جهادها في هذا السبيل ، قادتها في بدء نهضتها وفي تسربها وفي بدء شبابها وشرف كفاحها

ونحن كان لنهضتنا زعماء وقادة سنذكرهم بالخير عندما نذكر النهضة المصرية ، ولكن يجب علينا أن نتم ما بدأوه لنصل إلى ما وصل إليه غيرنا من القوة والعظمة

« المصري »